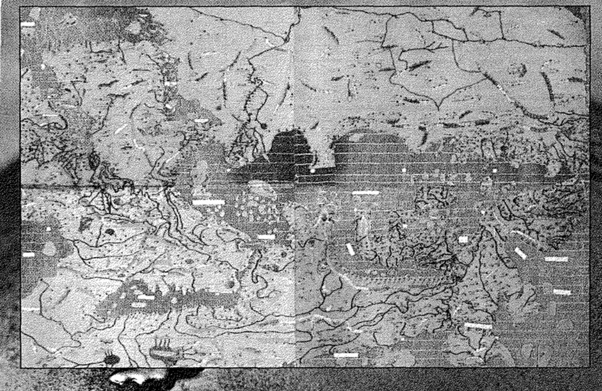


باشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

نظرات متقاطعة إلى المتوسط



THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

نظرات متقاطعة إلى المتوسّط

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها



تـــصـــوّرات
البـحـر الأبـيـض المـتــوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور ماير ينغ

نظرات متقاطعة إلى المتوسّط

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

T H A L A S S A

www.thalassa-editions.com

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC

المتوسط ليس مجرّد بداهة جغرافية، إنّه منطقة رمزية، ومكان زاخر بالتصورات. فمن التمعّن، بعمقٍ، في هذه الفكرة، والتأمّل المتأني الجمعي، ولدت هذه الأجزاء العشرة التي تتألف منها مجموعة «تصورات البحر الأبيض المتوسّط».

عمَّ نتكلّم، بالضبط، عندما نتكلّم على المتوسط ؟ من المؤكّد أننا لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من بيروت أو مرسيليا أو تونس أو أثينا أو القاهرة أو برشلونه أو استانبول... ففي كلّ لغة هناك مفردة تشير إلى هذه القارة السائلة، ولكن من وراء الكلمات تختلف الرؤى. ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقاتٍ تاريخية وثقافية مختلفة. كما أنها تأثرت، إلى حدّ بعيد، بالظرف السياسي وبالعلاقات المتأزّمة أو السلمية التي تنشأ، دورياً، بين الضفتين.

إنّ نظرتنا الخاصّة إلى المتوسط هي، بالنسبة لنا، على قدرٍ من الطبيعية بحيث ننسى، طوعاً، أنها في المقام الأول بناء ذهني يندرج في سياق نَسَبٍ تاريخي وثقافي خاصّ بكلّ بلد. وكان الغرض من هذا العمل، تحديداً، هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط في عشرة بلدان أوروبية وفي المحيط المتوسطي : المغرب، تونس، مصر، لبنان، تركيا، اليونان، إيطاليا، أسبانيا، فرنسا وألمانيا.

مثل هذا الاستكشاف له غاية مزدوجة : فمن جهة، تتبع تاريخ الصلة بفكرة المتوسّط في كلّ من البلدان المعنية؛ ومن جهة أخرى، صوغ الأسئلة، انطلاقاً من المدوّنة التي جُمِعت على هذا النحو ومن تنوع النظرات التي تمّ تحليلها، حول الأشكال المحتملة لرؤية موحدة للمتوسط.

ذلك أنه إذا كانت تصورات المتوسط هي ميراث من الماضي،

فإنها، أيضاً، تكيّف المستقبل. ولم تكن مجرّد مصادفة أن يكون هذا البرنامج هو الأول من سلسلة أبحاث مستعرضةٍ ومتعدّدة الاختصاص أطلقها «بيت المتوسط لعلوم الإنسان» في إيكس آنبروفانس، وهي المؤسسة المرجع في ميدان الدراسات المتوسطية في فرنسا وأوروبا. ولقد بدا لنا أن علمنا، حقّ العلم، بما يتحدّث عنه كل واحد منا عندما يذكر المتوسط، هو شرط مسبق لا غنى عنه لكي لا تكون الأبحاث اللاحقة، التي سيجريها شركاء متوسطيون من مشارب متنوعة، عرضةً لسوء الفهم. وهكذا تبدّى لنا أن الانكباب معاً على تحليل تصورات المتوسط المتنوعة يشكّل خطوةً أولى حاسمة لكي نتمكّن من أن نبني معاً مضماراً للدراسات المتوسطية.

وبما يتعدّى الشروط الفكرية لعملٍ أُنجِزَ بمجهود مشترك، فإنّ هذه الفكرة تندرج أيضاً في سياق راهنٍ سياسي بالمعنى الواسع للكلمة. لقد بدأ التفكير حول تصورات المتوسط في خريف العام ١٩٩٧، أي بمضيّ سنتين على تعهّد سبعة وعشرين بلداً أوروبيا ومتوسطياً، خلال اجتماع عقد في برشلونه، بإقامة شراكة مبنية، خاصة، على «التقارب والتفاهم بين شعوبها وتحسين شروط إدراكها المتبادل». وكان هذا الاعتراف بالدور الحاسم لمنطقة المتوسط من قبل أوروبا، على الصعيد السياسي والاقتصادي – وهنا الجديد في الأمر – الثقافي، يعني في الحقيقة معرفة متبادلة أفضل لجَعْلِ الحوار ممكناً والتخفيف من حدّة أشكال سوء الفهم المتبادلة. فكيف السبيل إلى تسليط الضوء على أشكال سوء الفهم تلك بغير استكشاف متخيّل هذه الجماعات أوتلك، والخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والثقافات : المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفقٍ لمواجهةٍ محتملة ؟ مكان انفتاح أو حدّ انطواء ؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق ؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

كان طبيعياً إذاً أن تحظى هذه الخطوة بدعمٍ لا يستهان به من اللجنة الأوروبية. كما انضمّ إلى المشروع شركاء آخرون : المؤسسة الوقفية الأوروبية للثقافة، ومؤسسة رينيه سايدو الوقفية للعالم المتوسطي، ووزارة الخارجية الفرنسية، ومنطقة بروفانس رونآلب كوت دازور، ودائرة «بوش دي رون» الإدارية، ومؤسسة الملك عبد العزيز الوقفية في الدار البيضاء. وفي محطات محدّدة خلال اللقاءات الدولية الثلاثة التي شهدها هذا البرنامج، أقيمت علاقات تعاون مع وسائل إعلام فرنسية كتيليراما (Télérama) وفرانس أنفو (France -info) وآرتي / القناة الخامسة (Arte-La Cinquième) أو الأجنبية (كصحيفة النهار البيروتية مثلاً)... وأخيراً، جرى طرح هذا التفكير مراراً للنقاش العلني الأوسع. على غرار ما جرى خلال لقاء بيروت، في كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٩٨، حيث نظّمت حلقتا نقاش في مسرح بيروت حول موضوعي «المتوسط العربي» و «متوسّط الكتاب». كما كان هذا البعد العمومي حاضراً خلال اللقاء الختامي للبرنامج الذي أقيم في إيكس أونبروفانس في آذار/مارس عام ١٩٩٩، حول موضوع «المتوسّط، حرب الثقافات أم مشروع مشترك ؟»

كلّ هذه المبادرات كانت تهدف، طوال فترة تقدّمها، لأن يتاح للتفكير القائم حول المتوسّط فرصة الانتشار في أوساط جمهورٍ أوسع من جمهور الجامعيين والمتخصصين.

واليوم يأتي نشر النصوص الكاملة المنبثقة عن هذا البرنامج ليضيف معالم تفكيرٍ غير مسبوق.

عشرة كتب لعشرة بلدان

إنّ هذه النصوص هي نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتاب من عشرة بلدان أوروبية ومن محيط المتوسط، سوف يجد القارىء نبذة عنهم في موضعٍ لاحق.

الباحثون – وجلّهم من المؤرخين أو متخصصين في الاجتماعيات – قد أوكلت إليهم مهمّة بيان النصوص الرئيسية والمراجع المتعلّقة بالمتوسط في تاريخ بلدانهم على التوالي. خلال لقاء أول عقد في الدار البيضاء في شباط / فبراير ١٩٩٨، في مؤسسة الملك عبد العزيز الوقفية، جرى تفكير مشترك حول الشكل الذي ينبغي أن يتخذه العمل البحثي (الإشكالية والمنهج) بحيث تتوافر، في المحصلة، «مادة بحثية» من شأنها أن تتيح إجراء تحليل مقارن للتصورات التاريخية للمتوسط. وإذ ذاك جرى رسم إطار : فمن الناحية الكرونولوجية، سوف تتركّز الأبحاث على حقبة القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي خلالها برزت فكرة المتوسّط على نحوٍ يمكن بيانه ؛ أما النصوص المجمّعة فقد تنتمي إلى أنواع كتابيةٍ مختلفة، من الأطالس والقواميس، ومن أدب الرحلات، والكتب المدرسية والنقاشات الفكرية والمجلات، ومن الحركات الأدبية، ودراسات المؤرخين والجغرافيين، وطبعاً من النصوص السياسية والإيديولوجية...

وعلى أساس مثل هذه المدوّنة مجتمعةً لكلّ بلد من البلدان المعنية أنجزت الدراسات المنشورة في هذه المجموعة.

أما مشروع الكتاب، وهو من طبيعة مختلفة وتكميلية، فكان مؤلفاً من نص مميّز حول صلتهم بالمتوسّط ؛ رؤى وذكريات، لحظات معبّرة وحكايات، أتاحت لهم أن يقيموا صلةً خاصّة بإقليم المتخيَّل هذا.

لقد تعمّدنا أن تنشر نصوص الباحثين والكتاب أحدها مقابل الآخر، لا لكي نشير إلى تعارضٍ مصطنع بين «الموضوعية العلمية» للباحث و «الذاتية الفنية» للكاتب – باعتبار أن الفرق بين المتجاورين يكمن في طبيعة المشروع لا في درجة اقتراب كلّ منهما من الواقع –، بل، على الضدّ من ذلك، لكي نتيح إضاءة متقاطعة وإبرازاً للأصداء المترددة بين المقاربتين. والواقع أن هذا الشكل من الحوار هو الذي اختاره المشاركون في البرنامج خلال

اللقاءات التي جمعت مراراً بينهم. وفي كل مرة، كان اللقاء بين دراسة النصوص التاريخية وبين التعبير عن الحساسيات الأدبية المعاصرة، يثمر نقاشاتٍ على قدرٍ كبير من الفائدة. وإذا كان مُفادُ هذا التبادل لا يمكن، للأسف، نقله عبر مؤلّف كهذا، فإنّ معناه قد صيغَ على أحسن وجه في مختلف النصوص التي كتبت والتي تقدّم هذه الكتب العشرة أثراً منه.

المؤلفون

ألمانيا

باحث – غريغور مايرنغ، هو مؤرّخ وباحث سياسي، متخصص بالعالم العربي المعاصر. نسّق لسنوات عديدة شبكة أبحاث «الحداثة والإسلام» في الفيسنشافتسكوليغ في برلين، كما عمل مستشاراً لدى وزارة التخطيط في المملكة العربية السعودية. أصدر عدداً من المؤلفات والمقالات بالألمانية، كان آخرها : «إبنة مصر ينبغي أن تُلعَن» (حول المسألة المصرية ١٨٨١/١٨٨٢ إبّان الحكم الفرنسي)، منشورات Periplus ، ١٩٩٧. وهو الآن مدير المكتب الإقليمي لمؤسسة كونراد أديناور في الشرق الأدنى.

كاتب – فولفغانغ شتورش، المولود في برلين ويعيش حالياً في فولتيرا. كاتب ومخرج مسرحي، ويدرّس في أكاديمية الفنون في دوسلدورف. أصدر عدداً من الدراسات والكتب، وخاصةً «Die Sprache der Landschaft» (لغة أرض الجذوع) (١٩٩٣) و «Mythus Orpheus» (أسطورة أورفيوس) (١٩٩٧). كما أنه أشرف على عدد من المعارض والبرامج الثقافية.

فرنسا

باحث – تييري فابر هو المسؤول عن محور Euromed في بيت المتوسّط لعلوم الإنسان حيث أشرف على برنامج البحث حول «تصورات البحر الأبيض المتوسط». مبتكر فكرة «لقاءات ابن رشد» بالاشتراك مع «فرانس كولتور» (France Culture)، ومؤلف دراسات عدّة، نذكر منها : «La Méditerranée entre la raison et la foi» (المتوسط بين العقل والإيمان) (Actes Sud , Babel, 1998) و «La Méditerranée, frontières et passages» (المتوسط حدود ومعابر) (Actes Sud , Babel, 1999) . وهو يتولى حالياً رئاسة

تحرير مجلة : «La pensée de midi» (Actes Sud, 2000).

كاتب – جان كلود إيزو (توفي في كانون الثاني / يناير ٢٠٠٠)، كاتب فرنسي ولد في مرسيليا، مؤلّف الثلاثية البوليسية : «Total Kheops» و «Chourmo» و «Solea». أصدر رواية متوسطية الطابع بعنوان : «البحارة المفقودون» (Les marins perdus) وكان آخر ما صدر له، قبل وفاته بأشهر قليلة : «شمس المائتين» (Le soleil des mourants) عن دار نشر Flammarion، عام ١٩٩٩.

إيطاليا

باحث – فرانكو كاسانو يدرّس الاجتماعيات في جامعة باري (Bari). ويكرّس أبحاثه لجنوب المتوسط. من بين إصداراته الأخيرة نذكر : «Il Pensiero meridiano» (الفكر الجنوبي) صدرت ترجمته الفرنسية في منشورات l'Aube، في العام ١٩٩٨ و Mal di Levante (١٩٩٧).

كاتب – فنشينزو كونسولو، كاتب من أصل صقلي، أصدر روايته الأولى «La ferita dell'aprile» (جرح نيسان) في العام ١٩٦٣. واكتسب شهرةً أوروبية بدءاً بالعام ١٩٧٦ مع روايته «Il sorriso dell'ignoto marinaio» (ابتسامة البحّار المجهول) وقد صدرت ترجمة هذه الرواية إلى الفرنسية بعنوان : «Le sourire du marin perdu» (عن منشورات غراسيه، باريس، ١٩٩٠). يعيش اليوم في ميلانو حيث صدرت روايته : «L'olivo e l'olivastro» (الزيتونة وذو اللون الزيتوني) في العام ١٩٩٤.

أسبانيا

باحث – إدواردو غونثاليث كايخا هو باحث في التاريخ المعاصر في الهيئة العليا للأبحاث العلمية في مدريد. وعمل طويلاً على النشاط الخارجي للفاشيات الأوروبية، وعلى الحرب الأهلية

الأسبانية وتاريخ العنف السياسي في أسبانيا المعاصرة. وصدر له :

"En busca del continente perdido : los intelectuales filofascistas de la Europa mediterranea y la defensa de Occidente en los anos de entreguerras" (Publications de l'Université de Provence, 1998):

«بحثاً عن القارة المفقودة : المثقفون المؤيدون للفاشية في أوروبا المتوسطية والدفاع عن الغرب في سنوات ما بين الحربين» (منشورات جامعة بروفانس، ١٩٩٨).

كاتب – مانويل فاثكيث مونتالبان، المولود في برشلونه، هو وجه عالمي معروف في الأدب الأسباني، ليس فقط لرواياته البوليسية بل أيضاً لنتاجه الأدبي الذي يتناول دور اللغة، أساساً، كأداةٍ للحفاظ على الذاكرة. وقد ترجمت معظم أعماله إلى الفرنسية وإلى لغات أخرى.

اليونان

باحث – رانيا بوليكاندريوتي، باحثة في معهد الدراسات الهلينية الجديدة في المؤسسة الوطنية للبحث العلمي (اليونان). تدور مؤلفاتها حول محاور اهتمامها والتي هي النظرية الأدبية والكتابة الصميمية (السيرة الذاتية، المذكرات، اليوميات الحميمة)، وحول أدب الرحلات والأدب الهليني الجديد.

كاتب – تاكيس تيودوروبولوس تابع دراسته في فرنسا، وعمل صحافياً في باريس، ثم في أثينا، لحساب عدد من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية. له عدد من الروايات، وينتمي إلى الجيل الجديد من الكتاب اليونانيين. من بين أحدث أعماله : «المنظر المطلق»، و«سقوط نرسيس»، نشرتا بالفرنسية في منشورات آكت سود في ١٩٩٢ و١٩٩٥.

المغرب

باحث – عبد المجيد القدّوري هو أستاذ التاريخ في جامعة محمد الخامس في الرباط. مختص في العلاقات بين المغرب وأوروبا وأيضاً في تاريخ الذهنيات. من بين أعماله نذكر: «المغرب وأوروبا من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر: إشكالية التباين» (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، ١٩٩٨)

كاتب – محمد برادة يدرّس في جامعة الرباط. إضافةً إلى عمله النقدي وترجماته العديدة، صدرت له روايتان ومجموعة قصص. كان رئيساً لاتحاد كتاب المغرب بين ١٩٧٦ و ١٩٨٣. روايته الأخيرة «نور هارب»، ترجمت إلى الفرنسية وصدرت عن دار نشر آكت سود (Actes Sud) عام ١٩٩٨ .

تونس

باحث – الصادق بوبكر هو مؤرخ، مختص في تاريخ تونس والعلاقات التجارية والمالية في المتوسط في العصر الحديث. ومؤلف عدد من الكتب والمقالات. صدر له : «أوساط التجار والثراء الفردي في تونس بين القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين». وهو يدرّس حالياً في جامعة تونس.

كاتب – آمنة بلحاج يحيى درست ودرّست الفلسفة في باريس وتونس. وهي اليوم ملحقة لدى وزارة الثقافة التونسية. لها عدد من المقالات والروايات : «يوميات حدودية» (Chronique frontalière) صدرت عام ١٩٩١ في تونس و (L'étage invisible) عام ١٩٩٧ ، و أحدث عهداً (Tasharej) عام ٢٠٠٠ .

مصر

باحث – محمد عفيفي وهو مؤرّخ، ويدرّس في جامعة القاهرة. وهو باحث زميل في المعهد الفرنسي للأركيولوجيا الشرقية في القاهرة (IFAO).

كاتب – إدوار الخرّاط ، روائي وقاص وناقد ومترجم؛ كما أنه تولّى في السابق الأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفارقة والآسيويين. أسهم في تأسيس وتحرير مجلات أدبية كانت منبراً لجيلٍ جديد من الكتّاب وكان هو طليعتهم. من رواياته العديدة نذكر : «رامة والتنين» و «ترابها زعفران» و «جميلات الإسكندرية» (ترجمة فرنسية عن دار نشر آكت سود) يسرد فيها ذكريات مسقط رأسه.

لبنان

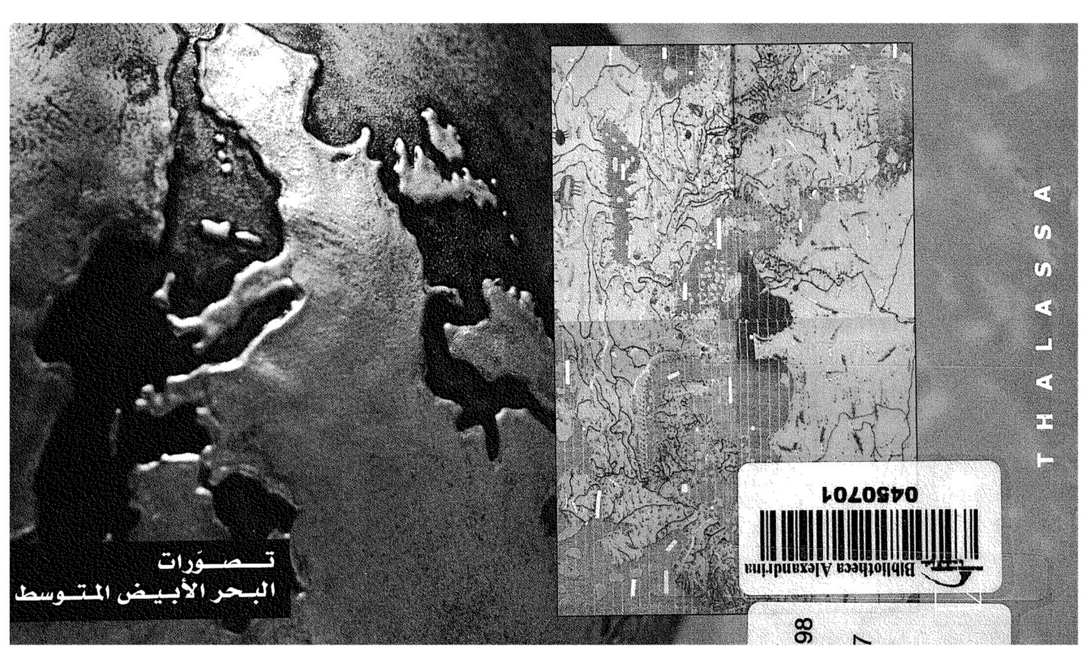
باحث – أحمد بيضون كاتب وباحث. أستاذ علم اجتماع الثقافة في الجامعة اللبنانية. صدرت له كتب عديدة وعشرات المقالات بالعربية والفرنسية. وهي تتناول، خصوصاً، المجتمع اللبناني ومشكلاته وبعض مسائل اللغة والثقافة العربيتين. من إصداراته الأخيرة : «كلمن : من مفردات اللغة إلى مركبات الثقافة»، دار الجديد، بيروت ١٩٩٧ ؛ «الجمهورية المتقطعة : مصائر الصيغة اللبنانية بعد اتفاق الطائف»، دار النهار، بيروت ١٩٩٩ ؛ «الصيغة، الميثاق، الدستور : لبنان الطائفي بين ديمقراطية وسلام»، (بالعربية والفرنسية)، دار النهار، بيروت ٢٠٠٣.

كاتب – الياس خوري، هو كاتب مدينة وبلدٍ مزّقتهما الحرب : «الجبل الصغير»، «الوجوه البيضاء»، «باب الشمس»... كما أنه كاتب عدد من السناريوات للسينما ومؤلّف مسرحي. بعد إسهامه في تأسيس عدد من المجلات الأدبية، يعمل اليوم رئيساً لتحرير «الملحق» الثقافي الذي يصدر عن صحيفة «النهار» البيروتية.

تركيا

باحث – أدهم ألديم، هو مدرّس مادة التاريخ في جامعة بوغازيشي (استانبول). وتدور أبحاثه حول التجارة الفرنسية في استانبول وحول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي العثماني بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أثمرت أبحاثه حول وثائق المصرف العثماني عدداً من الإصدارات من بينها «كنز عمره ١٣٥ عاماً، لمحات من الماضي في وثائق المصرف العثماني» (استانبول، ١٩٩٨).

كاتب – فريده تشيتشيكوغلو، أصدرت روايتها الأولى «لا تطلق النار على طائرة الورق» (١٩٨٦)، التي سرعان ما اقتبست للسينما وحازت جائزة الجمهور في اللقاءات الدولية (كان، ١٩٨٩). ومنذ ذلك الحين نال عدد من السيناريوات التي كتبتها جوائز عالمية. مؤلفاتها تشمل روايات ومجموعاتٍ قصصية ترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية، وكان آخرها ترجمة يونانية لروايتها : «الجانب الآخر من المياه» (منشورات كستانيوتيس، ١٩٩٧). وهي، حالياً، تترأس تحرير مجلة «Istanbul».


تـصـوّرات
البـحر الأبـيـض المتـوسـط
THALASSA